عائشة عصمت تيمور

(١٠)

شعرها الغزلي

« الحبُّ عارضٌ في حياة الرجل ولكنهُ حكايةُ حياةِ المرأة »

كلمة شهيرة قالتها امرأة من أنبغ نساء العالم فكراً وعاطفةً واقتداراً ، وهي مدام دي ستايل الفرنساوية التي استمتعت بمجدٍ مستحَقٍّ ، وشهرة غير مختلسة ، وحظوةٍ توافقت وعبقريتها النادرة . على أنها كانت دوماً جائعةَ العاطفة يُبرِّحُ بها ظمأُ الحبِّ . ولم تتبيَّن معنى السعادة — على قولها — إلاَّ بالحبِّ المتبادل الذي تمَّ لها على نحو ما شاءت في الأعوام الاخيرة من حياتها

يسير الحبُّ عند المرأة سيره الطبيعيَّ من الوالدين الى الاخوة والاخوات والأقارب والأصدقاء ، ثم يتجهُ في حينه الى الخاطب الذي ينبغي ان يكون الحبيب ، فالزوج والولد والعائلة الجديدة بفروعها . ورغم أنَّ هذا الحبَّ هو نسيج حياة المرأة ، فان الرجل الذي استسلم طول حياته لاذلالها باسم القوَّة والحصانة ، سدَّ في وجهها باب الانتباه لعواطفها المشروعة ، وأنكر عليها التعبير عما يدلُّ على أنها ذاتُ يقظة مستقلة . فكلُّ ما اجترأت المرأة على كتابته في العصور المظلمة كان لوصف النبات والحيوان في حكايات قصيرة . ولم تنظم إلاَّ الاناشيد الدينية والصلوات الروحانية ، أو لتصف حياة الرعاة وعاداتهم . اما النساء العربيات في الجاهلية وفي صدر الاسلام فلم ينظمن — على ما اعلمُ — الاَّ في المدح والرثاء وما اليهما . هذا عدا ما نُسب من الغزل الى بعض الشواعر

فلو رجعنا الى اوائل القرن الماضي — وهو عهد مدام دي ستايل نفسها — يوم انشأت المرأة تنزع الى تحرير فكرها واطلاق يراعتها ، وقابلناهُ بعهد عائشة وهي في خدرها وراء الحجاب ، لوجدنا شاعرتنا في طليعة نساء العهد الجديد المتعرِّفات حقهنَّ في حرية العاطفة ومشروعيتها ضمن حدودها الطبيعية . ليس في الشرق فقط بل في العالم المتمدِّن اجمع

***

لا يبعدُ انها قالت بعض شعرها الغزلي للمحاكاة والتقليد كما اعترفت في تصدير

بعض أبياتها حيث قالت : « وقالت متغزلة في غير انسان والقصد تمرين اللسان »
ولكن أتكون الابيات التالية في بساطتها « لتمرين اللسان » كذلك ؟

أشكو الغرام ، ويشتكي جفن تعذب بالسهر
ياقلب حسبك ما جرى أحرقت جسمي بالشرر
رام الحبيب لك الضنى لمَ ذا وانت لهُ مقرّ ؟
لكنّ تعذيب الهوى ما للشجي منهُ مفرّ

ان شعرها يكون في اصدق لهجاته عند ما تذكر هذا السعير الذي يضرمهُ الشوق وقد يثيرهُ الصدّ في بعض الامزجة إلى حين ، وهي تذكرهُ في اكثر غزلها :

حرُّ الهجاب وجدي واحتراق دمي بقبح وادي الغضا عمن سواك خفي

ونجد شيئاً منهُ في هذا المخمس الذي سمعتهم ينشدونهُ في سوريا . ومنهُ :

يا ظبيُ في قلبي عليك حرارة تطفي لظاها ، إن سمحت زيارة
حلو الرضاب ، أفي الوصال مرارة أم في التفاتك للشجيّ خسارة
وجميع ربحي في الهوى أنفقتهُ ؟

ومن مرثياتها :

لما نأى عني وبان صدودهُ والقلب أصبح لا يفيق عميدهُ
ملك الهوى رقي وحقّ وعيدهُ والحبُّ خط بالجبين قديمُ

هي تعني بهذا الشطر الاخير — أو بالحري الفكرة الاساسية الشائعة في الشعر العربي والتي نقلتها هنا عائشة ، تعني شيئاً واقعاً . وهو ان بين جماهير الناس أشخاصاً خلقوا للحبّ اكثر من غيرهم فقُدر عليهم ان يعرفوا بعضهم بعضاً فما يلبثون وأن يبحث الواحد منهم عن الآخر للسعادة أو للشقاء ولكن للحبّ وفي سبيل الحبّ على كل حال . وتمضي عائشة في اتمام مرثياتها وكلها غنائية تجمع بين البساطة وسهولة المعنى وقتنة الغرام الضرورية لتوقيع الانشاد :

يا ليلُ ، ها أنا فيك سامٍ ساهرُ ولعزّ المحبوب شاكٍ شاكرُ
يا ليل ، قد أيقنتُ انك كافرُ إذ لم يكن لي من دجاك رحيمُ

يا ليلُ انك في الفعال منافق هذا تشهدهُ ، وذاك توافقُ
واذا الضمير أنّ فيك العاشقُ ضاعفت شكواهُ وأنت بهيمُ

وهذا الخطاب الليل يذكرني بأبيات لابن اخيها ، المرحوم محمد بك تيمور الذي رأى في الليل عكس ما رأت ، فخاطبهُ بهذه الشكوى وهذا الاطمئنان :

أنا ، يا ليل ، أناجي منك سلطاناً رحيمْ

أنا في الدنيا وحيد ولي الناس خصوم
راقبهم ، إن جدَّ أمرٌ ، برقُ غدرٍ لا يدوم
ورأيت الغدر ناراً ورأوا فيهِ النعيم
هدموا بنيان ودّي وانمحت منهُ الرسوم
وعليك الليل برٌّ هو لي أمٌّ رؤوم
وهو لي خلٌّ أمين ولافكاري نديم
أنا يا ليل أناجي منك سلطاناً رحيم

***

ارتكبتُ قبل اليوم جناية الصراحة فقلتُ ان الخيال الشعري عندنا من الفقر بحيث نرى المعاني نفسها مكرَّرة في كل جيل بنفس الالفاظ القديمة . وقد بحث السادة الشعراء عمَّا يزيدهم تقيُّداً بالماضي فأوجدوا ما يسمونهُ « المعارضة » ليتيسر لهم التزام البحر والقافية كما تعهَّدوا بالتزام الالفاظ والمعاني ! فلا أرى بعد هذا حقّاً لأحد على لوم عائشة لانها وقفت عند معالم الغزل المألوفة ، التي قصرت في شعرنا إلا المستثنى منهُ — على التغزل بالعين والحاجب والخال وأخواتها . وشهدت جميع الاجيال السالفة تلوم العواذل وترجو ان ترد كيد اللاحي إلى نحره ، ففعلت هي فعلتهم جميعاً ولامت العواذل ، ورجت ان ترد كيد اللاحي إلى نحره . وتغزلوا بالخمرة ثم قال المتصوِّفة منهم انهم يرمزون بها إلى الحب ، فتحدتهم التيمورية :

جهل العواذل ما تريد بشربها نفسي وما تلقى من السكرات
وتسلياً عن جفوةٍ أم صبوةٍ لفؤادي المضنى من الحسرات
شتان بين ظنونهم وسرائري الله يعلم منتهى غاياتي

كذلك تحدث الاندلسيون في شعورهم السطحيّ واصطناعهم تفهُّم الطبيعة فوصفت حركات حدثت للزهر والماء لان المحبوب الذي تسميه التيمورية بهذا الاسم الطامي في الشعر العربي ، أي الغصن ، بدا في الروض . فاهتزَّ لظهوره كل ما يمكن ان تهزهُ

الفاظ الشاعرة من الموجودات . وهي إذن تتساءل :

ان كان ذلك حال الزهر من عجبٍ فكيف حال أخي وجدٍ وأشواقِ ؟

كلّ هذه الحذلقة عندها وعند من قلّدتهم كان مقدمة طويلة سبقت عهد «الرومنتسم» الصادق اي عهد دخول الشعراء الى نفوسهم يلمسون جراحهم بأيديهم، ويستوحونها ، ويتعرّفون خلاّتهم النفسية ليتمكنوا من النظر الى الطبيعة تلك النظرة الرائعة التي ترى فيها فاتن المعاني والالوان في الحزن والابتهاج جميعاً . وما ذُكر الشعور بالطبيعة ونزعة الرومنتزم اي النزعة الوجدانية الصميمة في الادب، الاّ ذُكر جان جاك روسو موجد تلك النزعة في الغرب . فسرت من بُعد الينا . وتعلّم الجيل الجديد من شعرائنا تعرُّف ما في نفوسهم وفي الطبيعة من ظواهر وخوافي وتغير وتنوع

ولقد رأينا الى الآن أنها تتكلم بلهجة الرجل ، وذلك راجع طبعاً الى امرين ذكرتهما قبلاً وهما :

اولاً عادة الضغط على عواطف المرأة واخراس صوتها . فكان ابسرُ لها ان تتخذ لهجة الرجل المصرّح لهُ بما يحظّر عليها . ثانياً لانها كانت مقلدة . فقد قلدت الرجل بداهة في لهجته كما هي قلدته في معانيه . فالرجال اساتذتنا ومهذبونا و مكيفونا. نتلقى دروسنا عليهم ، ونقتبس المعرفة عن كتبهم ، ولستعين بذكائهم لصقل ذكائنا وأعانهِ ، ومنهم نستقي كلّ فكر عظيم وكل عاطفة جليلة . وقد احتكروا كلّ انواع المقدرة والتفوّق ، فلا غرو اذا ما فتحنا عيوننا واذهاننا فرأينا جميع مناحي السلطة والسيطرة ممثلة فيهم. بيد ان الطبيعة النسائية تظهر عند عائشة بعض الظهور بالخجل الذي يشعر المرأة احياناً بأنها صغيرة ضئيلة امام من تحبّ ، وان هذا الرجل الذي اختارتهُ هو الذي يملأ العالم حياة ويفيض عليهِ البهجة والنور :

انا المسربل بالاعذار من كلفٍ اذا التفتْ ، وانت الرائق الوسم

وتظهر طبيعة المرأة ظهوراً تام في هذا الخجل الصريح :

وهذهِ كلمات قادها شغف إليك ، لولاهُ لم تبرز من القلم

جاءت ومن خجل تمشي على مهلٍ تخاف عند لقاها زلة القدم

***

ولعل خير شعرها الغزليّ في القصائد التي قيلت خلال رمدها أو بعد الشفاء

منه يوم تعود الى مشهد النور ورؤية وجوه الاحباب ومنها:

بكبة الحسن إنساناً أرى فسلوا عيني التي ظلما ضلّت من الفسق
وخبروني ، أإنساني صفا ودنا لمنتهاه رماهُ البين بالارق ؟

ثم عاودها الرمد فأنشأت تشكو الالم والظلام والحرمان جميعاً :

فوا أسفي على انسان عيني غدا في سجن سقم واعتقال
حجبتُ بسجنه عن كلّ خلّ وصرتُ مخاطباً صوَر الخيال

ثم أرسلت الامنية الواحدة المتضمنة اماني اخرى :

فيا انسان عين غاب عنها وبدّلني به طول الملال
عسى القاك مبتهجاً ، معافىً ، وأُصبحُ منشداه أملي صفا لي !»
لتهنأ مقلتي بسنا حبيبٍ بديع الحسن ، محمود الوصال
وألظم أحرفي كالدرّ عقداً به جيد الصحائف كان حالي

ثم وصفت ما تلاقيه من عذاب الظلام والارق :

فكم أسري بما ألقى حزيناً وبين النوم معترك وبيني
أبيتُ ومؤنسي الخفاش ليلاً وحالي معهُ شرُّ الحالتين
فذاك بنور عينيه مهنّا ولي اسف بحجب المقلتين
وأبسط للظلام اكفّ بثي وأشقى لوعةً بالظلمتين
تراني معرضاً عن كلّ ضوء فهل خاصمت نور النيرين ؟
يناقرني السنا فأفرُّ منهُ كأن الضوء يطلبني بدين
واجنح للظلام جنوح صبٍّ دنا لحبيبه بالرقتين

على انها شفيت نهائياً فأصبحت منشدة « أملي صفا لي ! » على نحو ما غنت :

روحي بقربك قد نالت من الارب ما ترتضيه ، فرّها في الهوى تجبر
فضع عينك فضلاً فوق مهجتها تكفّ بالكفّ ما عانتهُ من وصب
لا تكرنّ مزايا الحبّ ، إنّ لهُ في الراحتين لراحات من التعب

وهذا معنى آخر مقتبس كسائر معانيها، الا انهُ ذا مغزى يختفي وراء الالفاظ . فاني أرى فيه إشارة الى مغناطيس اليد كما هو مؤثر وفعال بين المحبين والاصدقاء، حتى وبين الذين لا يفرّقهم تنافر . وهو قاعدة علمية قامت عليها اليوم بعض تجارب التنويم المغناطيسي . وكيف لا يكون لكفّ الحبيب هذا التأثير ، والحبّ محورُ الحياة :

صبٌّ لقربك بالحياة يجود أنّى لهُ بعد البعاد وجودُ
يختام طبع الحسن قد طبع الهوى في قلبهِ هذا هو المقصود

ولكن العواذل — لحاهم الله! — عادوا الى الاصطياد في الماء العكر، كما يقول كتابنا السياسيون في هذه الايام. فهل من انتقام أتمّ من رميهم بالكفر؟

كأنهم بمنادي عصبة كفروا ما حلّ في قلبهم صدق وإسلام

أما وهناك ما يفضي الى خيبة الامل وخمود العاطفة، فتسخط شاعرتنا وتجنح الى الاعراض والنسيان، رغم الالم والمضض:

غضضتُ نواظري عن غصن قدّ وعفت حنين قلبي، وهو روحي
فلو عقب الهوى قلبي، وقالت إذن روحي أروح، لقلت روحي!
وأفكاري تسوح لفرط شوقي فأطوي لوعتي، وأقول سوحي!
لقلبي قد بكت عيني، وقالت أنوح الى النشور، فقلت نوحي!
وذاك ليلهِ شرقاً وغرباً لنفحات الفوق مع الصبوح

***

واذكر قبل الختام ان في عصر عائشة كانت رائجة الادوار والمواليا، تلك الاغاني العامية التي يفهمها الجميع ويستلذونها بلا اجهاد، لانها تخاطب الصق العواطف للوجدان بلغتهم اليومية. وهي كمجموعة الغنى العربيّ القديم محصورة في شكوى الحبّ، ولوم الحبيب، ووصف جماله، وعبادة ما نثر على وجنتهِ من خال وشامة، والتحرق من هجرهِ، والتضرّع اليهِ وللايام والقدر ليروا جميلاً ما يحسن صنعهُ لتسوية الامور... ومجموعة شعر عائشة الغزليّ لا تعلو على هذه الاغاني الا بكونها منظومة. لذلك سهل إنشادها. لاسيما المربعات التي يغنونها في سوريا لبساطة معانيها وتراكيبها. كذلك سمعتُ ادواراً ومواليا تنشد في حفلات الافراح واجتماعات الانس، ولم يدر المنشدون انهم يلحنون روح امرأة بانشادهم كما ان كثيرين منا يجهلون عندما ينشدون «قدك امير الاغصان» و«الحلو لما انعطف» وغيرها انهم يروون شعراً من صبري باشا. وان كثيراً من الادوار الشائعة هي من وضع أدباء كبار نحسبهم تحصنوا في معاقل اللغة الفصحى. وهذا من الادوار التي وضعتها عائشة:

حياتي بعد بعدك توح ووعدي ضيّعك مني
دا انت كنت الغذا للروح وليه ترضى البعاد عني؟

وغيره :

انا احبّ الحب تفنى الغرام روحي
وصيحت اول صبّ الناس ترى نوحي
في القلب من جوّه والسر هو هوّه

وهذا من الموالي

يا ألف أهلا ،مليك الحسن أهو قابل وكلّ مضنى بحسن الامتثال قابل
حاروت لحاظه أنى بالسحر من بابل كم من ضنى تاهت افكارو وقلبو داب
يا قلب تقبل كدا ؟ قال لي نعم قابل

***

كاردوتشي الايطاليّ كبير في موهبته الشعرية وموهبته النقدية ، ولقد كان كبيراً بظلمه ايضاً فيما يختص بشاعرية المرأة . وله في ذلك قول مأثور ، وهو ان اثنين عليهما ان لا يقولا شعراً ، لاسيما الشعر الغزليّ ، وهما الكاهن المسيحي والمرأة . ولكثيرين من الناس رأي في مواهب المرأة قد لا يبعد كثيراً عن رأي كاردوتشي ولست ادري هل كتب لهم ما كتب الكاردوتشي ليحمله على تغيير رأيه تغييراً سجّله هو على نفسه باغتباط ، يوم ان وضع مقدمة لمجموعة الشاعرة الايطالية أني ڤيڤانتي. ليس ألطف من انحدار هؤلاء العظماء بعد تأملهم في بعض آرائهم الصبيانية، ولا أصرح من اعترافهم بخطأهم اعترافاً خالياً من التحفظات والاستدراكات والمداورات التي تشغل الكويتبين وذوي المدارك المحدودة الذين كأنهم لا يفتأون يقولون : اني اعترف ، ولكني لا اعترف . صحيح ، ولكنهُ غير صحيح . حسن ، ولكنهُ غير حسن . جميل ولكنهُ غير جميل !

عدّل كاردوتشي رأيهُ بعد قراءة أشعار البرابث براونتج ،ومدام ديبورد ڤالمور، وأني ڤيڤاني وصرّح بأن لدى المرأة شيئاً تقولهُ غير ما تستخهُ عن الرجل . ولا عجب في قوله، بل العجب في قول المناقضين . لانهُ مهما فاخر الرجل بعبقريته التي تحبّبها ، وأعجب بها ، واستحثّها فيه ، فهو لا يستطيع ان يدّعي انهُ الطبيعة البشرية كلها . لان الطبيعة لم ترده ان يكون اكثر من النصف الواحد من الذات الانسانية الكاملة. وهو هذا النصف النشيط الجميل البارع الذي أوجد لنا ما نتمتع به اليوم من حسنات

المدنية . . . ومن الباقي الفائض عن الحسنات كذلك . . .

أما النصف الآخر فهو المرأة ، وهو الذي ظلّ الى اليوم مهملاً ، مكموماً ، مسحوقاً . بل هو الذي اذا ذُكر قيل انهُ غير موجود . أعني بهذا الحكم القاصر الرأي العام . واستثني الاقلية المنصفة الرشيدة من الرجال الذين هم في الحقيقة نبّهونا الى نفوسنا ، ولهم كل الفضل في تشجيعنا ومساعدتنا وارشادنا

طبيعيٌّ ان المرأة في بادىء الامر تقلّد الرجل تقليدَ التلميذ للمعلم ، تقليد الصغير للكبير . طبيعيٌّ ان تفعل ذلك في مجموعها المتيقّظ وان تفلتت من كل تقليد صاحباتُ العبقرية منذ نزعتهن الاولى ، مثيلات صافو ، ومدام دي ستايل ، ومدام دي نواي معاصرتنا التي فازت في العام الماضي بجائزة الآداب من الاكادمية الفرنساوية ، وميتلدا سراوو التي يشبهها بول بورجه ببلزاك الكبير في رواياتها المشبعة بوصف حياة الشعب وعاداته وانفعالاته وآلامه

إنّ عواطف المرأة وتأثراتها شيءٌ بشريٌّ مشروع . وبالمران ستتعلم الاستسلام لطبيعتها النسائية والركون اليها في التعبير ، بعد ان قضت على خواطرها طويلاً . فترسل الآن صيحة جديدة وتفتح في إدراك البشر وفي آدابهم افقاً جديداً

أقول هذا بمنتهى التعقل وبدون مبالغة

فنحن الجهة المقابلة في الذات الانسانية الواحدة نختبرُ مالا يعرفهُ الرجل ، كما ان بعض اختبارات مولانا تظلُّ أبداً مغلقةً علينا . واذا قُدّر للمرأة المصرية أن تلج هذا الباب وتمعن في المسير كان مرجع الفضل الى الثيمورية التي اشرت أول علَم في الجادة غير المطروقة ، وبكرت في إرسال الزفرة الاولى حيث كانت تُكتمُ الزفرات . ويوم ينمو الادب النسائي في بلادنا فيجيء حافلاً بحياة فنية ستظلُّ اناشيد عائشة ، هذه الاناشيد الساذجة ، لذيذة عبوبة كترنيمة المهد القديمة التي همّمت لنا بها امهاتنا ، شجية مطلوبة كصدو النصب القائل ان وراء المشاغل يظل القلب البشري متقلاً بحنين وظمإ لا يعرفان النفاد

« مي »